

الْفَاضِلَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُجَلَّنَا وَتُعْظِمَ قَدْرَنَا عِنْدَ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ...

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَخَشُّعًا رَفَعَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ تَطَاوَلَ

تَعَظَّمَ وَضَعَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

”عَظَمَةُ الْإِنْسَانِ فِي تَوَاضُعِهِ“

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْكِرَامُ!

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي

قُمْتُ بِقِرَاءَتِهَا: ”وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

الْأَرْضِ هَوْنًا...“¹

وَيَقُولُ رَسُولُنَا الْحَبِيبُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ: ”مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَخَشُّعًا رَفَعَهُ اللَّهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ تَطَاوَلَ تَعَظَّمَ وَضَعَهُ اللَّهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ.“²

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَعْرَاءُ!

لَا شَكَّ أَنَّ أَعْظَمَ دَلِيلٍ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ فِي

حَيَاتِنَا هُوَ الْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ الْحَمِيدَةُ جَنبًا إِلَى جَنبٍ

مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ هِيَ

الْأَسَاسُ الْقَيِّمُ الَّذِي يُنِيرُ دُنْيَانَا وَيَجْعَلُ مِنْ آخِرَتِنَا

جَنَّةً رَغِيدَةً. وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِلَا رَيْبٍ أَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي

تَنْتَهِي بِنَا إِلَى الْجَنَّةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ

وَالْحَمِيدَةِ. وَإِنَّ التَّوَاضُّعَ هُوَ فِي مُقَدِّمَةِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ

إِنَّ التَّوَاضُّعَ هُوَ عَدَمُ الْكِبَرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ. وَهُوَ

الِابْتِعَادُ عَنِ التَّبَاهِي وَالْعُجْبِ وَالْخِيَلَاءِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ

التَّوَاضُّعَ هُوَ تَبَيَّنٌ لِحَيَاةٍ طَاهِرَةٍ نَقِيَّةٍ مِنَ الْغُرُورِ

وَالْكِبْرِيَاءِ. وَهُوَ أَيْضًا إِظْهَارُ الْإِحْتِرَامِ وَالشَّفَقَةِ

وَالرَّحْمَةِ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ وَمُعَامَلَتِهِ بِأَدَبٍ وَلَطَافَةٍ

وَرَفْقٍ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْكِرَامُ!

إِنَّا نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ تَعَلَّمْنَا التَّوَاضُّعَ مِنْ

رَسُولِنَا الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَدْ عَاشَ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيَاةً تَتَّسِمُ بِالْبَسَاطَةِ.³ وَكَانَ يُجِلُّ

وَيُقَدِّرُ الْإِنْسَانَ لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ. كَمَا وَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ أَنَّ التَّوَاضُّعَ هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.⁴

وَقَدْ ذَكَرْنَا كَذَلِكَ بِأَنَّ احْتِقَارَ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ

هُوَ إِثْمٌ كَافٍ بِذَاتِهِ.⁵ كَمَا أَنَّ رَسُولَنَا الْأَكْرَمَ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَنَا بِأَنَّ التَّوَاضُّعَ هُوَ صِفَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ

تُجَلَّ وَتُعْظَمَ قَدْرَ صَاحِبِهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ يَقُولُ

فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "... وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا

عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ.“⁶

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكِرَامُ!

إِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يَتَّسِمُ بِالتَّوَاضُّعِ وَيَتَّخِذُ رَسُولَنَا

الْحَبِيبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُدْوَةً لَهُ يُدْرِكُ أَنَّ جَمِيعَ

الْأَلَاءِ وَالنِّعَمِ هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهَا مِلْكُهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَيُذْرِكُ كَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ هِيَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ اِمْتِحَانٌ لِدَاتِهِ وَنَفْسِهِ. وَالْمُؤْمِنُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ جَمِيعَ الْإِمْكَانَاتِ الَّتِي فِي حَوْزَتِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنَالَ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَلَا يَرَى نَفْسَهُ أَبَدًا مَهْمَا كَانَتْ مَكَانَتُهُ وَمَوْقِعُهُ وَسَهْرَتُهُ وَغِنَاؤُهُ، عَلَى أَنَّهُ فِي وَضْعٍ مُخْتَلِفٍ عَمَّا عَلَيْهِ بَاقِي النَّاسِ. وَيُؤْمِنُ تَمَامًا بِأَنَّ الْفَضْلَ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالتَّقْوَى.

بِقَدْرِ مَا هُوَ مُكَلَّفٌ بِأَنْ يَكُونَ مُتَوَاضِعًا فِي حَيَاتِهِ وَعَيْشِهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَقِفُ دَائِمًا بِعِزَّةٍ وَجَلَالٍ فِي وَجْهِ كُلِّ مَنْ يَحْتَقِرُ إِخْوَتَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. كَمَا وَيَعْمَلُ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ عَلَى أَنْ يَصُونَ شَرَفَ الْمُسْلِمِينَ وَعِزَّتَهُمْ. وَيَتَّبِعُ بِقَلْبِهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..."⁹

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَعْرَاءُ!

إِنَّ غَايَةَ الْإِسْلَامِ تَكْمُنُ فِي زَرْعِ التَّوَاضُعِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ جَانِبٍ وَإِبْعَادِهِ قَدْرَ الْإِمْكَانِ عَنِ الْكِبَرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ. لِأَنَّ الْكِبَرَ كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ "الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ".⁷

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكِرَامُ!

لِنَعْمَلْ عَلَى أَنْ تَمَلَأَ جَمِيعَ نَوَاحِي حَيَاتِنَا بِالتَّوَاضُعِ. وَلِنَحْرِضَ عَلَى أَلَّا نَجْرَحَ أَحَدًا أَوْ نُؤْذِيَهُ. وَلِنَحْرِضَ أَيْضًا عَلَى أَلَّا نَتَّخِذَ بِمَلَدَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ فُتْحَرِنَ بَعْضَنَا الْبَعْضَ. وَلِنَتَّبَعِدَ عَنِ الْكِبَرِ وَالْعُرُورِ وَالتَّبَاهِي الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَوَّلَ دُنْيَانَا إِلَى سِجْنٍ وَآخِرَتِنَا إِلَى جَحِيمٍ. وَلِنَحْرِضَ كَذَلِكَ عَلَى أَلَّا نَحْتَقِرَ النَّاسَ وَنَتَّجَهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ. وَلَا نَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا بِكِبَرٍ وَإِسْتِعْلَاءٍ. وَلَا نَنْسَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ.

إِنَّ الشَّخْصَ الْمُتَكَبِّرَ يَظُنُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَا خُلِقَتْ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ وَخَدَهُ. فَيَشِيخُ بِوَجْهِهِ عَنِ النَّاسِ مُحْتَقِرًا لَهُمْ. بَيِّنٌ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجِبُ أَلَّا يَحْتَقِرَ أَيَّ أَحَدٍ مَهْمَا كَانَتْ الْأَسْبَابُ. وَقَدْ حَدَرْنَا رَسُولُنَا الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضِعُوا، حَتَّى لَا يَنْبَغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ".⁸

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَعْرَاءُ!

إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْرِطَ فِي تَوَاضُعِهِ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي أَيِّ أَمْرٍ آخَرَ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ مُكَلَّفٌ بِحِفْظِ شَرَفِهِ وَعَرْضِهِ وَشَرَفِ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْرَاضِهِمْ

¹ سُورَةُ الْفُرْقَانِ، الْآيَةُ 63.

² مُسْنَدُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، 3، 76.

³ صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الرُّهُدِ، 33.

⁴ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ الْأَدَبِ، 61.

⁵ صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الْبِرِّ، 32.

⁶ صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الْبِرِّ، 69.

⁷ صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، 147.

⁸ صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الْجَنَّةِ، 64.

⁹ سُورَةُ الْفَتْحِ، الْآيَةُ 29.